التقديم المادي

المؤلف : محمود أحمد تيمور ((1894-1973 م)) كاتب قصصي، ولد في القاهرة في أسرة اشتهرت بالأدب؛ فوالده أحمد تيمور باشا (1871-1930م) الأديب المعروف، الذي عرف باهتماماته الواسعة بالتراث العربي، وكان "بحاثة في فنون اللغة العربية، والأدب والتاريخ، وخلّف مكتبة عظيمة هي "التيمورية"، تعد ذخيرة للباحثين إلى الآن بدار الكتب المصرية، بما تحوي من نوادر الكتب والمخطوطات" وعمته الشاعرة الرائدة عائشة التيمورية (1840-1903م) صاحبة ديوان "حلية الطراز"، وشقيقه محمد تيمور (1892-1921م) هو صاحب أول قصة قصيرة في الأدب العربي.

العنوان :دنيا جديدة / محمود تيمور

الطبعة :ط3

الناشر تونس : دار المعارف للطباعة و النشر , 1995

الوصف المادي :160ص ; 18سم

السلسلة :سلسلة إبداعات

التقديم المعنوي :

تلخيص :قصة قصيرة للكاتب محمود تيمور من مجموعته القصصيّة دنيا جديدة

غادر المنزل وقد بنى عزمه على أن ينفّذ فكرته!..

وسار في الطريق زائغ النظرات، وفي رأسه أتون يتأجج، ولكن خطواته كانت متلاحقة محكمة تدلّ على عزيمة واقتدار، كأنّها خطوات جنديّ ماض إلى حومة القتال!..

إنّه يشبه الجنديّ فيما يقصد إليه، من أداء مهمة وخوض معركة، ولكن الفارق بينهما أن الجنديّ يمضي وهو في فسحة من الأمل، أن يعود ظافرا، يعانق الحياة، ويقتطف ما فيها من متع ومباهج!.. أمّا هو، فيسير في مثل صلابة الجنديّ وعزمته، بيد أنّه يعلم علم اليقين أنّ ذهابه إلى غير رجعة... خوض معركة يخرج منها مهزوما قد طواه الردى!...

ولكن كيف يعدّ نفسه مهزوما، إذا انتحر؟..

أليس الموت في حقيقة الأمر، أكبر انتصار على الحياة!.. وماذا لقي من هذه الحياة؟.. إنّها لحرباء خبيثة، طالما خادعته وغرّرت به.. هذه الحياة لقد كانت تتفنّن في الكيد له، وتسخر من إخفاقه، وتذيقه ألوانا من التعذيب والإيلام!.. هذه الحياة لقد كانت تركله وتطأه، فينهض محنيّ الظهر، معفّر الوجه، ليخفض هامته ثانية لتلك الجنيّة اللدود، فلا تلبث أن تنحني عليه بسياطها حتى يخرّ مثخنا بجراح الخيبة والإذلال!..

هيهات للحياة أن تنال منه منالا بعد اليوم.. إنّه سيقف أمامها وجها لوجه، ويقول لها:

– لن تستطيعي منذ الآن أن تستعبديني وتستمرئي شقائي!.. كلا، لن تستطيعي أن تفعلي شيئا معي!.. ستقفين أمام رفاتي، قليلة الحيلة، عاجزة الوسيلة.. مهما تحاولي فليس في مقدورك أن تلحقي بي أي أذى!.. إنّها ساعة انتصار لي.. أليس الموت في الحقيقة أكبر انتصار على الحياة؟..

وحثّ خطاه إلى حيث ينفذ فكرته.. ولكن أي جهة يختار؟.. إنّه يدري إلى أي ميدان يذهب، ولكنّه لا يدري أي مكان في هذا الميدان يحلّ فيه؟..

بأي أسلوب ينتحر؟..

ما أكثر الوسائل!.. أيختار الترام؟.. ومثل في ذهنه الترام، وهو يقطع الطريق مثقلا براكبيه، كأنه أتان حملي مكدودة.. أتان عجفاء نخرة العظام.. أيسلم لهذه الأتان رقبته طائعا مختارا؟ أيرضاها لنفسه جلادا؟..

هناك السمّ الزعاف.. هناك المدية الماضية، هناك أفانين ممّا يكفل له بلوغ مأربه المنشود.. وأشرق وجهه بغتة إشراقة الظفر.. لِمَ لا يكون النيل جدثه العظيم؟.. هذا الإله القادر، الذي يتدفّق منذ الأزل، يشقّ الصحراء الجرداء، فيحيلها جنّات فيّاحة ناضرة.. إنّه ليلقي بنفسه عن طيب خاطر في هذا الفيض الزاخر بالخيرات!.. ما أسعده حقّا إذ يشعر بأنّ ذراعَيْ هذا الأب الشفيق، تضمانه إلى صدره فتخفيانه، فلا يلبث أن يفني فيه!.. أيّ فخر أعزّ من أن يغدو جزءا من ذلك الإله في قوّته وعظمته، يشاركه فيما يغدق على البلاد من نعم وبركات؟..

لقد جرّب حظّه في الحياة مرّات ومرّات، فباء بالإخفاق المرّ!.. هو الإخفاق دائما.. ذلك الوحش الهائل الذي تجمّعت فيه كل مظاهر القسوة والعنف، ذلك الحيوان الضخم، الذي يماثل الحيوانات المنقرضة التي عاشت قبل التاريخ.. إنّه ليلاحقه حيثما حلّ، يراه تارة رابضا أمامه، وهو في ساحة الامتحان، يرمقه بالنظر الشزر، ويبتسم له ابتسامته النكراء، ويكشر عن أنياب قذرة مسنونة كرؤوس الحراب.. ويخيّل إليه دائما أنّه يسمع منه فحيحا، كأنّما يقول له: هأنذا لك بالمرصاد!...

هو الإخفاق دائما.. يعاجله أبدا في كسب رزقه، في تحقيق مآربه.. وأخيرا وقد سقط مريضا وطالت به العلّة، كان يري ذلك الحيوان المنقرض، حيوان ما قبل التاريخ، وقد أرسل خرطومه يستنزف دمه على مهل، ويستلّ روحه في بطء!.. لقد لازمه ذلك الحيوان في مرضه، ولم يدعه إلا خرقة إنسانية مهلهلة، لا حيوية فيها ولا نشاط!..

ماذا في هذه الحياة يستحق أن يعيش من أجله؟.. إنّه يحيا في بيت خاله مع أسرته، يحيا معهم كالغريب المنبوذ.. طالما قرع سمعه صوت خاله: لوجه الله أطعمك، وآويك، فإلى متى؟.. وطالما تعالت صيحات التذمر والسخرية، فيخالها دخانا كثيفا، يتعقد ويحيط به، حتى لا يستطيع أن يتنفس!.. وهذا الحيوان المنقرض، حيوان ما قبل التاريخ، مترصدا له أبدا، تتلاعب ابتسامته النكراء على فمه الغليظ الأدكن، وهو يكشّر عن أنيابه القذرة المسنونة كرؤوس الحراب...

وسار الفتى ثم سار حتى دنا من ضفّة النيل.. إنّ النخيلات الشامخة، بهاماتها الملوكية، لترفّ بأغصانها ترحابا بمقدمه!.. وإنّ الشمس الغاربة بقرصها المتوهّج، لكأنّها نار وليمة تشبّ لاستقباله!.. النيل!.. نعم النيل!!.. في عبابه الزاخر يودع عالم الشرّ والفناء، يستقبل عالم النعيم والخلود، وهو محوط بتلك الأناشيد العذاب، ترددها له أطياف لا تراها العيون، تلك الأناشيد التي لا يسمعها إلا من أقبلوا على الأبديّة، بأرواح تخلّصت من الشوائب، وشملها الطهر والصفاء!..

وأصبح من ضفّة النيل على قيد خطوات، وأحسّ بقدميه تتثاقلان، وقد بدأ يغشاه سحر غريب.. واختار مكانه الملائم.. ووقف هناك وقفته الأخيرة، وعيناه تحدّقان في الأمواج المتدفّقة، يحاول أن ينفذ إلى أعماقها.. ماذا وراء هذه الأمواج التي تتراقص على متن النهر؟..

وانبعثت ضجّة غير بعيدة منه، فتلفت هنيهة حوله.. إنّها حركة الطريق.. أناس بين غاد ورائح ومركبات تضجّ بعجلاتها وتصيح بأبواقها.. إنّها ضجّة الحياة، ضجّة الدنيا.. وابتسم ابتسامة هازئا، ثم عاد يحدّق في الماء!..

أحقا إنّ هذه الدنيا ليست جديرة بأن يعيش من أجلها؟.. إنّ الناس من أجلها يعيشون، إنّهم يسعون إلى الرزق كادحين مجاهدين.. أليس هو مثلهم إنسانا؟.. ألا يستطيع أن يسعى كما يسعون كادحا مجاهدا؟ ولكن هذا الإخفاق، هذا الحيوان الهائل الكريه، حيوان ما قبل التاريخ.. إنّه رابض في طريقه يسدّ عليه المسالك، ولن يستطيع هو بخَوَرِ عزيمته أن يتغلب عليه ويُنحّيه عن الطريق.. أفي مقدور بعوضة إنّ تساور الأسد الجبّار؟.. إنّه ليشعر بالامتعاض والتأفف من نفسه، لماذا رضي أن يكون بعوضة، على حين يري الناس من حوله أسودا ضارية؟..

وأطال التحديق في الماء أمامه...

وتحفزّ ليقفز، فإذا به يسمع حركة طارئة.. حركة تصحبها همسات وأنّات.. وتلفّت حوله، فتبيّنت عينه في ظلمة الغروب شبحا يضطرب على حافة الشاطئ عن كثب منه.. وألقى نفسه يكمن خلف جذع شجرة، وأخذ يرقب الشبح من مكمنه، ويحدّ بصره، فإذا الشبح فتاة تتعثر في خطاها، وبين يديها لفيفة تضمّها إلى صدرها ضمّة رحمة وحنان.. وتوقفت الفتاة، وأطالت النظر إلى اللفيفة، ثم مهّدت لها مكانا بين الأعشاب النابتة على حافة الشاطئ، ووضعتها في رفق، وما لبثت أن انحنت عليها تقبلها في شغف، ونهضت بغتة مندفعة صوب النهر.. وفي لمحة هوت في الماء، فانبعث لسقوطها صوت مكتوم مفزع، كأنّه صوت وتر في قيثارة شدّ إلى أقصاه حتى انقطع!..

وألقى الفتى نفسه يهوي حيث هوت الفتاة، ويغوص وراءها، في ذلك الخضم المتلاطم.. وبعد جهد ومغالبة استطاع أن يصل إليها، وأن يعود بها إلى الشاطئ، خائرة القوى، فاقدة للوعي!..

وأخذ يسعفها بما هدته إليه الفطرة، ونجح في مسعاه، فإذا الحياة تضطرب بين جوانح الفتاة، فوضع رأسها على ركبتيه، وعيناه تتوسمان وجهها، وقد بدأت مواكب الليل تتزاحم إثر النهار الغارب تطارد فلول الضوء!.. ولكن تلك المواكب لم تلبث أن وقفت خاشعة، أمام ذلك الملك العظيم، الذي بدأ يعلو من الشرق قرصا أرجوانيا، يتهادى في روعة وجلال.. فتصاغرت أمامه جحافل الليل الزاحف، وأخذت تتزايل..

وسطع الضياء الفتيّ على وجه الفتاة، فإذا بمحياها هادئ لم يزده امتقاع الإعياء إلا وسامة على وسامة، وكان شعرها البلبل مسدلا حول رأسها تتناثر خصلاته على كتفيها، وقد تدلت بعض هذه الخصلات، تخفي ما ظهر من صدر ناهد، كان قد شق القميص وأسفر!..

ورفعت الفتاة جفنيها، فإذا عينان زرقاوان تماثلان زرقة السماء الصاحية، تختلج أهدابهما الوطاف حولهما، كأنّها أحراس ساهرون على ذلك النبع الفياض..

ونهضت الفتاة برأسها قليلا وهمهمت جزعة:

– أين أنا؟...

فمسح الفتى على شعرها، وقال في لهجة ظفر ووثوق:

– أنت في حرز أمين...

وتلاقت عيناهما في ذلك الضوء الفضي الساجي الذي يشيع في النفس الأمن والصفاء.. وجعلت الفتاة ترنو في شبه غيبوبة تختلط حيالها الحقائق بالأحلام .. وأطال الفتى النظر إلى عينيها، وأحسّ بأنّ هذا النبع قد أخذ يفيض بالخيرات، وإذا هو يري فيه عوالم جديدة، ذات سماوات وأرضين، لا عهد له بها من قبل، وإنّه ليسمع من ذلك النبع الفياض خريرا لم يسمع قط أبهج منه قَطّ...

ومرّت على الفتى فترة، وعيناه موصولتان بعينيها... إنّها لحياة جياشة تتفتح له، حياة بعيدة عن واديه القديم بقفره وجدبه. واعتلجت في رأسه شتي الخواطر والأفكار.. يا للعجب!.. إنّ الله قد بعث به إلى ذلك النهر لينقذ حياة هذه الفتاة الناعسة.. هناك قوانين قاهرة، لا يستطيع المرء أن يقف لها على تفسير.. ألسنا مسيرين حقّا لا مخيّرين؟ لقد أنقذ روحا بشرية من صنع الله.. أنقذ مخلوقا من بني جنسه، ردّ إليه الحياة ثانية، بعد أن أوشكت أن تفرّ عنه..

إنّه غالب الموت فغلبه في المعركة.. إنّ الله أراد لهذه الفتاة الحياة، فكان هو في ساعته يد الله!.. إنّه يحسّ قوّة الله في جسمه، وعظمته تسري في أوصاله!..

واهتزّ الفتى اهتزازة اعتداد بنفسه واعتزاز...

وسمع الفتاة تهمهم:

– لِمَ أنقذتني يا سيدي؟...

فقال وعيناه ما زالتا موصولتين بعينيها:

– لَمْ يكن لك أن تجرمي في حقّ نفسك هذا الجرم...

واستمع لصدى صوته في نفسه، فكأنّه يستمع إلى إنسان آخر يتكلم، كائن جديد ينطق في لهجة جديدة!...

أجابت الفتاة:

– وهل من العدل أن يحيا المرء في هذه الدنيا، يعاني من الظلم ويشقى؟..

– ليس لنا أن نتخيّر، بل نصبر على ما نحن فيه.. ثم نجاهد ونكافح ونأمل!!..

– لقد جاهدت، فبئت بالخيبة، وفقدت كلّ أمل..

– حاولي أن تخلقي الأمل خلقا، وأن تتصيّدي السعادة تصيدا!..

– حاولت فأخفقت...

– حاولي أيضا ولا تيأسي.. يجب أن يكون في قلبك إيمان... إنّ الحياة ليست عبثا..

– كيف؟

– فكري للحظة.. إنّ الله لم يخلقنا في هذه الدنيا سدى، وإلاّ فما هي حكمته في أن يقذف بنا في هذا التيار، نصاوله ونصارعه، دون جدوى؟.. إنّ لكلّ منّا رسالة يؤديها!..

– وهل لمخلوقة حقيرة مثلي رسالة؟..

– أحقر كائن في الأرض له رسالة يجب أن يؤديها، وإن خفي علينا وعليه أمرها..

وغمغمت الفتاة:

– رسالة؟.. أنا أؤدي رسالة؟..

وبغتة تلفتت حولها متفزعة، وصاحت:

– طفلتي!

وهرع الفتى والفتاة إلى مكان اللفيفة، فألفيا الطفلة مدرجة في لفائفها، ناعمة العين بالنظر إلى القمر، مبهورة بضوئه اللألاء، تتحرك يدها في فرحة، وهي مستغرقة في مناغاة ومناجاة..

فالتقطت الأم طفلتها، واحتوتها في صدرها، وجعلت تغمرها بقبلها الحنون..

ثم شرعت تقص على الفتى قصة ذلك البؤس الذي دفع بها إلى القضاء على نفسها.. إنّها قصة شائعة تتلخص في كلمات قلائل: حبّ، فعبث بالفضيلة، فافتضاح، فطرد من بيت الأسرة، فتخل من الحبيب..

فأمسك بيدها يلاطفها وهو يقول، وقد أشار إلى الطفلة، يداعب وجنتيها:

– ألا تعترفين معي بأنّ في الحياة نواحي جميلة طيبة، وأنّ الله لم يخلقنا فيها سدى؟...

كان الفتى قد ترك في بيته كتابا، يخبر أهله فيه بأنه معتزم التخلص من الحياة، وكانت الفتاة قد تركت في بيتها أيضا مثل هذا الكتاب.

إذن لقد انتحرا.. تخلصا من دنياهما القديمة التي شقيا بها، وشقت بهما حينا من الدهر..

لقد أنقذ الفتى روحين، وإنه لمسئول عن مصيرهما..

ونهضا.. وطفقا يسيران، هو يخطو مرفوع الهامة، تتّقد عيناه عزما وحيوية، وهي بجانبه معتمدة على ذراعه، يشرق على محياها سيما الطمأنينة..

إنّهما يسيران..

يسيران وقلباهما يخفقان بشعور واحد، شعور نقي ناصع، كضياء هذا الكوكب المتألق الذي يغمرهم بفيضه اللؤلئي..

يسيران نحو دنيا جديدة...